

١ - علم الكلام : مقصوده وما مله

ثم إنني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وقلته ، وطلعت كتب الحقيين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً ورافياً بمقصوده ، غير وافي بمقصودي ؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد التقي الله (تعالى) الى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودينهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والآنخبار . ثم التقي الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبسات أهل البدع الخدثة ، على خلاف السنة الماثورة ؛ فنهى نشأ علم الكلام وأهله . ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله (تعالى) اليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة الملتقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما احدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصوصهم ، واضطربهم الى تسليمها : إما التقليد ، أو اجماع الامة ، أو مجرد القبول من القرآن والآنخبار . وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسائلهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً (أصلاً) فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا للدائي الذي كنت أشكوه شافياً . نعم ، لا نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة الذب (عن السنة) بالبحث عن حقائق الامور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها . ولكن لا لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحق بالكلية ظلمات

الحيرة في اختلافات الخلق . ولا ابعد ان يكون قد حصل ذلك لغيري ! بل
لست اشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض
الامور التي ليست من الاوليات !

والغرض الآن حكاية حالي ، لا الإنكار على من استسقى به ، فان
أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر
به آخر !

* * *

٢ - الفلسفة

ثم اني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل [ذلك] العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطالع على ما لم يطالع عليه صاحب العلم من غور وضائلة . واذ ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقاً . ولم أر احداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهنته الى ذلك .

ولم يكن في كتب « المتكلمين » من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ، إلا كلمات معقدة مبعدة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاضطرار بها بما قل عامي ، فضلاً عن يدعي دقائق العلوم . فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ربي في عناية . فسمرت عن ساق الجهد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استماتة باستاذ ، واقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس ^{١٥} ، والافادة لثلاث مائة نفر من الطلبة ببغداد . فاطلعتي الله سبحانه [وتمالي] ، بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختصة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين . ثم لم ازل اواطب على التمكنر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأردده وانفقد غرائله وأضواره ، حتى اطلمت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخيل ، ^{١٥} اطلاقاً لم اشك فيه .

فاسمع الآن حكاياتهم وحكاية حاصل علومهم ، فاني رأيتهم اصنافاً ، ورأيت علومهم اقساماً ؛ وهم على كثرة اصنافهم يلزمهم وصحة الكفر والاحاد ، وان كان بين القدماء منهم والاقدمين ، وبين الاواخر منهم والاولائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

اصناف الفلاسفة وسُجُول وصحة الكفر والاشتم

اعلم : انهم ، على كثرة فرقهم واختلاف مذهبهم ، ينقسمون الى ثلاثة اقسام : الدهريون ، والطبيعيين ، والالهيون .

الصنف الاول : الدهريون ، وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدير ، العالم القادر ، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون ابداً . وهو لآء هم الزنادقة .

والصنف الثاني : الطبيعيون ، وهم قوم اكثر واكثرهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، واكثروا الخوض في علم تشریح اعضاء الحيوانات فقرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ونبائع حكمته ، ما اضطروا معه الى الاعتراف بنافر حكيم ، مطلع على غايات الامور ومقاصدها . ولا يطالع التشریح وعجائب منافع الاعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكال تدبير الباني لبيئة الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان . إلا أن هؤلاء ، لكثرة بحوثهم عن الطبيعة ، ظهر عندهم ، لاعتدال المزاج ، تأثير عظيم في قِيوم قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ايضاً ، وانما الحيوان به . فلا يعقل إعادة المعلوم بتطل بيطلان مزاجه ففتمدم . ثم إذا انعدمت ، فلا يعقل إعادة المعلوم كما زعموا . فذهبوا (الى) أن النفس تومت ولا تعود ، فوجدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، [والحشر والنشر] ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛ فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الانعام .

وهؤلاء ايضا زنادقة : لأن أصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الالهيون ، وهم المتأخرون منهم [مثل] : سقراط ، وهو

أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس ، وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهدى [لهم] العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنصح لهم ما كان فجياً من علومهم ، وهم بجماعتهم ردا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أضلوا به غيرهم .

« وكفى الله المومنين القتال بتقاتلهم » . ثم رد أرسطاطاليس على افلاطون وسقراط ، وعن كان قبله من الإتهين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ؛ إلا أنه استبقى أيضاً من ردائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهم . على أنه لم يتم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين . وما نقله غيرهما ليس يخاو عن تخطيط وتخطيط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ؛ وما لا يفهم كيف يُرد أو يقبل ؟ وجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به ؛ ٢ - قسم يجب التبليغ به ؛ ٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً . فلننصّله .

أقسام علومهم

اعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وولفية ، وسياسية ، وخلقية .

١ - أما الرياضية : فتعاقب بعلم الحساب والفندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية تفهياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادحتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان :